تقـديم

مثيرة جداً ومحيرة فى آنٍ واحـد الحياة الخفيـة للشعوب ، تلك الحيـاة التى تمتزج فيها الحقيقة بالخيال ، والوهم بالواقع ، وتعتمد على الحدس العقلى ، والتكهن بما سوف ينفع من خلال مجمـوعة الحقائق والمقـدمات التى يبنى عليهـا الخبير السرى فى أجهزة الدولة الخاصة للمخابرات نتائجه وتوقعاته بما سوف يكون عليه الحال فى المستقبل .

* فقد يتوقع مـن خلال تلك الحقائق والأدلة نشوب حـرب مستقبلية تغير الشكل السياسى لمنطقة معينة .

* وقد يتوقع أيضاً تغييراً اقتصادياً وفكـرياً « فلسفياً وعقائدياً مترتباً على التغيير السياسى والعسكرى فى دولة ما .

وأكبر دليل على ذلك من هذا الـذى ذكرنـاه آنفاً هو مـاتوقعـه « سيرجى نيلوس » الكـاتب الروسى فى ذلك الكتـاب الوثـائقى الـذى أوقع فى يده عن طـريق الصدفـة تلك الوثائق السرية للمؤامرات اليهودية من أجل السيطرة على العالم .

فأخرج لنا كتاب « برتوكـلات حكماء صهيون » ؛ فتنبأ من خلاله بسقوط روسيا القيصرية ، وإحلال البلشفية مكانها . وتنبأ أيضاً بنشوب حرب عالمية فى هذا الكتاب .

وتنبأ أيضـا ببناء وطن قـومى لليهـود . للعلم كانت أول طبعـة لهذا الكتاب سنـة ١٩٠٦ .

والشىء العجيب والمحير أيضاً أن الذى توقعه حدث بالفعل ، بل وأكثر منه .

والكتـاب الذى بين أيـدينا من هـذا النـوع ، فهو يحكى قصـة الصراع المخابـراتى والجاسوسى للدول العظمى بينها وبين بعضها ؛ فيوضح لنا مرارة الحياة التى يحياها هؤلاء الرجال الذين يحترفون هـذا النوع من العمل الشاق المضنى ، وما يترتب عليه من نتـائج فى الغالب تكـون هلاك العميل أو تعـرضـه لأشد أنـواع العذاب من قبل رجـال مخابرات الدولة المعادية التى يعمل ضدها إذا انكشف أمره .

ولكن ثمة وقفـة تسترعى النظر للقارىء المدقق حين يطلع على مثل هـذا النوع من

الكتب ـ ماهى الفائدة التى تعود عليه ؟ أو بالأحرى ما الفائدة التى تعود على الدولة من كتاب مثل هذا ؟

* أولاً معرفة أحدث النظم المخابراتية لتلك الدول العظمى والإفادة منها ، وليس فى هذا عيب ، فنحن نعرف أنهم يملكون الحضـارة المادية ويسيطرون عليها ، ويصدرون إلينـا كل غثٍ تافـه ؛ فينتشر بيننا انتشـاراً يكـاد يغلف حياتنـا ، فالأحـرى أن نتمسك بالشىء الذى يجعلنا نملك الحضار ونهيمن عليها .

* ثانياً جعل هذا العمل مادة علمية تـدرس لطلبة المدارس من المرحلة الثانوية كما يحدث فى كثير من الدول المتقدمة ، فهى من قبيل التاريخ السياسى أو العلوم السياسية التى تركز فى ذهن الطـالب المعرفة الحقيقية للعالم الذى يحياه ويعيـش فيه ، فهو عالم المعلومات .

ونحن بدورنـا كدار نشر نحاول أن ننشر فى وطننـا العربى أحدث مـا ألف فى هذه الدول فننشره مترجماً إلى العـربية حتى يفيد منـه القارىء العربى العـادى ، ناهيك عن المتخصص .

وعلى الله قصد السبيل

« دار رشاد »

مقدمة

لايزال جهاز المخابرات السرية البريطانية المعروف باسم « إم آى ٦ » يتمتع بسمعة واسعة بين سائر أجهزة ووكالات الاستخبارات العالمية .

ولايزال ضباط المخابرات البريطانية يتمتعون بالصيت الذائع حول العالم بأنهم محترفون ومحنكون وأهل للثقة والاعتماد والمسئولية ، وذلك على الرغم من قائمة الفشل والإخفاق التى تعرض لها جهاز المخابرات السرية البريطانية ، تلك القائمة التى نالت الشهرة والذيوع .

ولم تؤثر الثورات السياسية أو الاضطرابات العسكرية فى ذلك الجهاز الاستخبارى الذى استفاد من ميزة الاستمرارية التاريخية دون انقطاع ، مما أدى إلى اكتسابه فوائد التقاليد المستقرة وأضفى عليه طابعاً أسطورياً ، ولاغرابة أو دهشة فى ذلك ، فهو بمثابة الصورة الحسنة التى عززت مصداقيتها الحكومة البريطانية ، كما زادها شهرة الأعمال الفنية السينمائية والتليفزيونية والقصص الروائية والدرامية التى عرضت للأعمال الخفية للاستخبارات البريطانية وذلك فى هوليود العالمية ، ناهيك عن أقوال الصحافة وتقاريرها التى تناولت الـ « إم آى ٦ » .

ولقد فتن الجواسيس وأعمال الجاسوسية والعمليات السرية رجال الصحافة منذ زمن غير معلوم ، ليس بسبب أن تقاريرهم الصحفية عن الاستخبارات تكشف فحسب الأسرار الحصينة على نحو يؤثر فى جماهير القراء ، بل أيضا لأنها موضع اهتمامات الجماهير العريضة من القراء ، ولقد زاد الاهتمام فى أعقاب عام ١٩٤٥ لأن المؤرخين وغيرهم صار بوسعهم ولأول مرة أن يكشفوا نتائج أعمال المصادر النشيطة ورجال المخابرات السرية البريطانية وأعمالهم البطولية وتضحياتهم من أجل الـ « إم آى ٦ » إبان الحرب العالمية الثانية .

ثمة سبب آخر لذلك الاهتمام المتعاظم ألا وهو أن سائر الحكومات حول العالم ، اعتمدت اعتمادا كبيراً أثناء الحرب الباردة على أجهزة المخابرات التابعة لدولها إلا أن الفهم الصحيح لذلك كله وتلك الأنشطة سار محدوداً وضيقا جدا ؛ لأن الحرب السرية

بين الشرق والغرب استمرت بدون انقطاع ، وعلى مدار أربعين عاما لم يلقَ الباحثون المجتهدون الذين غاصوا بدراساتهم فى عالم الجاسوسية ، لم يلقوا سوى حوائط صماء بكماء قوامها الصمت ، مما جعلهم يكررون ببلاهة المعلومات المشوهة المدسوسة عمداً للتضليل ، أو استطاعوا فى أحسن الأحوال أن يضمنوا أبحاثهم نتفا من الحقيقة وفى الوقت الذى أصبحت فيه حجب السرية مبررة بأن مطالب الحكومات تقتضى من الاستخبارات أن تصنع سياساتها وفق تكَتُّم شديد وحرص بالغ ، كما أن هناك حالات تقتضى فيها حاجات الحكومات أن تضرب ستارا كثيفا من السرية على أنشطة الاستخبارات ليس من أجل حماية حرمة الجهاز الاستخبارى فحسب بل أيضا من أجل حماية المنظمة المخابراتية من الإرباك أو الاختراق ، وتقع تلك الظروف التى عالجها كتاب « الأخطبوط الأحمر » فى هذه الفئة .

ويرجع سبب الشروع فى تدبيج هذا الكتاب إلى الظهور المفاجىء للمستر « كيم فيلبى » على شاشات التليفزيون فى جمهورية لاتفيا السوفيتية فى خريف عام ١٩٨٧ ، وفى ذلك اللقاء الذى عرضه التليفزيون البريطانى ، ادعى الجاسوس السوفيتى أن القلائل القومية التى كانت تكتسح آنذاك دول البحر البلطيقى سببها هو السخط العام أو سياسات المكاشفة والمصارحة الـ « جلاسنوست » التى اتبعها الكريملن فى ذلك الوقت ، ولكنها كانت موضع اهتمام متعمد من جانب جهاز المخابرات السرية البريطانية والحكومة الإنجليزية ، وقال « كيم فيلبى » : إن سياسة المكاشفة ماهى إلا تكرار وإعادة لسياسات واستراتيجيات جهاز المخابرات البريطانية السرية التى انتهجها البريطانيون فى دول البحر البلطيقى إبان ذروة الحرب الباردة .

وفى فبراير ١٩٨٨ ، ذكرنى « بارى بينروز » بادعاءات « فيلبى » التى بدت غير قابلة للشرح أو التفسير فى ذلك الحين ، أما الكتب المنشورة فقد أشارت فقط إلى فقدان جهاز المخابرات السرية البريطانية لعملائه الذين زج بهم إلى داخل الاتحاد السوفيتى فى أعقاب عام ١٩٤٥ ، فى حين أن « أنتونى كافيينديش » وهو أحد ضباط المخابرات البريطانية السابقين ذكر دوره المحدود فى العمليات المنفذة فى البحر البلطيقى بأسلوب يثير الخلاف وبطريقة المذكرات الشخصية ، أما سبب التجاهل فهو بسيط ، حيث أراد كل من الضباط الاستخباريين فى كل من لندن وواشنطن أن يطبقوا نوعا من الكتمان والسرية على كارثة محدقة .

ولقد استحثنى كل من « بينروز » و « جورج كارى » و « فيل ويات » و « فيلب نايتلى » و « روبيرت الاسون » عضو البرلمان ، و « توماس باورز » .. على السفر مرارا وتكرارا على مدار الأشهر الاثنى عشر التالية عبر أوروبا ، والولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى ؛ لاستكشاف الحقائق التى قال بها المستر « فيلبى » .

ولقد بدأت البحث وسط جملة مصادفات غير متوقعة كلها عبارة عن تناقضات وتضاربات فى المواقف ، وفى حين كنت فى لندن ، أدخلت الحكومة البريطانية إجراءات تقيد تقييدا شديدا أية نوع من أنواع الحديث حول أنشطة أجهزة المخابرات السرية البريطانية .

ولقد تحدثت أثناء الأشهر التسعة التى قدمت أثناءها طلب زيارة الاتحاد السوفيتى وكان المسئولون فى موسكو ينظرون فى شأن الزيارة ، تحدثت مع حوالى مائتى ضابط من ضباط المخابرات السابقين ، والعملاء السابقين ، والزعماء المهاجرين والخبراء العاملين فى أوروبا وشمال أفريقيا .

أما مسألة تجزئة المعلومات ، وهى أمر ضرورى ومتطلب من أجل الأمن ، فقد كانت تعنى أن هؤلاء الأفراد الذين خدموا داخل جهاز المخابرات السرية البريطانية أو وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية أو أجهزة مخابرات ألمانيا الغربية والسويدوالدنمارك وفنلندا فقد كانوا مدركين فقط مثل تلك القصة التى أثرت على عملهم الخاص وفى نفس الوقت الذى كان الجميع فيه يعرفون أن عمليات جهاز المخابرات السرية البريطانية ووكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية قد انتهت نهاية مفجعة وماسقته ، فلم يدرك أحد فى الغرب أو يفهم الصورة الكلية للحقائق .

لهذا السبب ، حينما سمحت لى الحكومة السوفيتية فى نوفمبر ١٩٨٨ بالاطلاع على المعلومات والوصول إلى العملاء والجواسيس المأسورين والذين لايزالون أحياء من عملاء جهاز المخابرات السرية البريطانية ووكالة الاستخبارات المركزية ، فضلا عن كبار المسئولين العاملين فى المديرية الثانية الكبرى التابعة لجهاز أمن الدولة السوفيتية أو الـ « كى جى بى » ، داخل الجمهوريات السوفيتية المطلة على البحر البلطيقى ومنها « لاتفيا ولتوانيا » فقد عرفت على وجه الدقة أسماء أولئك الذين أردت أن أعقد معهم لقاءات ومقابلات ، كما عرفت أيضا بعض التفاصيل المتعلقة بأنشطتهم .

ولقد عاوننى « بول هامان » و « كولين كاميرون » المسئولين فى تليفزيون هيئة

الإذاعة البريطانية على زيارة دول البحر البلطيقى ثلاث مرات ، مما هيأ لى الفحص المرة تلو المرة ثم إعادة الفحص تكرارا فى روايات وجدال كل من الطرفين ، وهو العمل الذي تكشف عن وجود عملية خداع كبرى وغير عادية دبرتها أجهزة المخابرات السوفيتية المعروفة باسم الـ « كى جى بى » .

وعلى جانبى الستار الحديدى ، كانت ثمة تساؤلات لاتزال غير مجابة مما تسبب فى الإحباط ، ففى بعض الأحايين كان العذر فى عدم الإجابة هو « الأمن » ودواعى الأمن ، وفى مناسبات أخرى ، وجدت أن الشخص الوحيد الذى بإمكانه وحده فقط أن يسدى لنا المعلومات الدقيقة والمطلوبة ، قد انتقل إلى الرفيق الأعلى .

وفى أحايين أخرى كنت أتعرض للارتباك والتخبط الناتج عن تضارب المعلومات وتناقضها الشديد ، مما جعلنى أشعر بأن المسائل كلها مدبرة على نحو وثيق من أجل التضليل والخداع وتضييع أية فرصة ممكنة من أجل معرفة الحقيقة ، وهى ظاهرة معروفة فى عالم المخابرات الخفى باسم « المرايا المتوحشة أو المجنونة » ، ولايسعنى إلا أن أؤكد أنه يتمخض على ذلك أن بعض التكهنات والاستنتاجات المنتقاه من هذا التضارب الوحشى ، ثبت أنها دقيقة جداً وصائبة وأنها قد لمست عين الواقع الحقيقى .

وأتوجه بجزيل شكرى إلى شخصين لولاهما لما خرج هذا الكتاب إلى حيز الوجود وهما المستر « مايكل شو » الذى كان لحماسه وتشجيعه كبير الأثر فى إتمام هذا الكتاب ، كما أشكر زوجتى « فيرونكا » التى تحملت الوحدة التى يفرضها الكاتب على زوجته وفقا لما يقتضيه العمل ...

لندن

المؤلف

« المصطلحات المختصرة »
لأجهزة المخابرات والتنظيمات المختلفة
التى ورد ذكرها فى الكتاب

١ ـ سى ـ اى ـ ايه ..... وكالة المخابرات المركزية الأمريكية

٢ ـ سى ـ اى ـ سي ..... فيالق مكافحة المخابرات المعادية .

٣ ـ دى ـ بى ..... الأشخاص المرحلون عن أوطانهم لأسباب عرقية أو طائفية أو دينية .

٤ ـ إف ـ بى ـ اى ..... مكتب التحقيقات الفيدرالى .

٥ ـ جى ـ سى ـ اس ..... رئاسة هيئة الأركان المشتركة .

٦ ـ كى ـ جى ـ بى ..... لجنة أمن الدولة فى الاتحاد السوفيتى .

٧ ـ الـ ـ سى ـ سى ..... مجلس لاتفيا المركزى .

٨ ـ ان ـ كيه ـ فى ـ دى ..... البوليس السرى السوفيتى .

٩ ـ ان ـ سى ـ اس ..... مجلس الأمن القومى .

١٠ ـ ان ـ تى ـ اس ..... التحالف القومى للعمال « الاتحاد السوفيتى » .

١١ ـ او ـ جى ـ بى ـ يو ..... الأمن الروسى الداخلى .

١٢ ـ او ـ ام ـ جى ـ يو ـ اس ..... مكتب الإدارة العسكرية « الولايات المتحدة ».

١٣ ـ او ـ بى ـ سى ..... مكتب تنسيق البوليس .

١٤ ـ او ـ اس ـ او ..... مكتب العمليات الخاصة .

١٥ ـ او ـ اس ـ اس ..... مكتب الخدمات الاستراتيجية .

١٦ ـ او ـ يو ـ ان ..... منظمة القوميين الأوكرانيين .

١٧ ـ او ـ يو ـ ان ـ ار ..... منظمة القوميين الثوريين الأوكرانيين .

١٨ ـ بى ـ سى ـ او ..... مكتب الرقابة على جوازات السفر .

١٩ ـ بى ـ اتش ـ بى ـ سى ..... لجنة تخطيط مواقع المعادين .

٢٠ ـ اس ـ اى ـ اس ..... هيئة المخابرات الســـرية « تغير اسمها من وقت لاحق إلى إم ـ ١٦ »

٢١ ـ اس ـ ام ـ تى ..... هيئة المخابرات الحربية السويدية .

٢٢ ـ اس ـ او ـ اى ..... هيئة العمليات الخاصة .

٢٣ ـ اس ـ اس ـ يو ..... وحدة الخدمات الاستراتيجية .

٢٤ ـ ف ـ الـ ـ اى ـ كيه ..... اللجنة العليا لتحرير لتوانيا .

٢٥ ـ دبليو ـ اي ـ ان ..... الحركة البولندية من أجل الاستقلال والحرية .

* * * *